العلم يكشف عن

ضمائر المجرمين

النفوذ الى ضمير المجرم وحمله على الاعتراف بفعلته كانا ولا يزالان غرض المحاكمات الجنائية في العصور القديمة والعصور الحديثة على السواء . وقد كان المجرم يعرَّض في العصور القديمة لالوان من التعذيب يقشعرُّ لها الجسم لما تنطوي عليهِ من قساوة ووحشية ، ولا يزال بعض هذه الوسائل شائعاً في بعض البلدان بعد تعديله تعديلاً يسيراً . بل ان المجتمع الانساني نفسهُ لايكاد يصدِّق ان هناك وسائل لاستلال سرّ المجرم من بين شفتيهِ ، اشدَّ رأفة بهِ وافعل أثراً من وسائل التعذيب المشهورة . ولكن العلم اختطَّ طريقاً في ميدان ظنَّة الناس ممتنعاً على العلم ، فاستنبط العلماء اساليب جديدة ارأف بالمجرمين ، وهم ناس يتألمون ويتعذبون ، واهدى الى الغرض المقصود في أقصر وقت وعلى أيسر حال . ومع ان القوانين الجنائية ، لم تعترف بعدبهذه الاساليب ، نرى رؤساء دوائر التحقيق الجنائي يعتمدون عليها في بعض البلدان ، ويبلغون في الاعتماد عليها نتائج باهرة ، وهذا كفيل بأنهُ لا ينقضي وقت طويل عليها حتى تسبح سلاحاً مشروعاً من أسلحة رجال البوليس والنيابة

ولعلَّ أشهر هذه الاساليب العلمية الجديدة وأفعلها آلة تعرف باسم « بوليغراف كيلر » وهي آلة غرضها الكشف عن كذب المجرم وامتراثهِ عند التحقيق . والمبدأ الذي بنيت عليهِ هذه الآلة هو قياس ضغط الدم . فهي لا تختلف في أركانها عن الجهاز الذي يستعمله الطبيب لقياس ضغط الدم عند مريض يخشى تصلُّب الشرايين . ولكن بدلاً من الابرة المتحركة في الجهاز الخاص بضغط الدم ، هناك ريشة ترسم خطاً على ورقة ملصقة من لفة ورق متحركة . فيجلس المتهم وهذه الآلة ملفوفة على ذراعهِ ، فيوجهُ اليه الباحث الاسئلة في صوت طبيعي لا تجهُّم في وجههِ ولا تهديد في نبراتهِ . فيجيب عنها المتهم بما يراه ، وكلما أجاب كذباً ارتفع ضغط دمه وظهر أثر هذا الارتفاع في الخط الذي ترسمهُ الريشة على الورقة المتسابة

ولكنك قد تسأل : لماذا يرتفع ضغط الدم عند مايقول كذباً . او لماذا يؤخذ ضغط الدم دليلاً على ان المتهم يمتري في جوابهِ ؟ ان سرّ الجواب عن هذا السؤال في التغيرات الفسيولوجية التي تطرأ على الجسم عند ما يكون متأثراً او منفعلاً انفعالاً عنيفاً . فالانسان اذا واجه خطراً ما ، استعدَّ جسمهُ من الوجهة الفسيولوجية لدفع الخطر ، فتطلق الكريات الحمر من الطحال الى مجرى الدم حيث تتصل بالمفرزات التي تفرزها الغدد الكلوية وغيرها من الغدد ، وغرضها جميعاً ان تبعث في الجسم

النشاط للكفاح او للفرار . فكأن أعضاء الجسم تبعث في الجسم نشاطاً غريباً عند ما يواجه خطراً يهدده . فينشأ من هذا كله زيادة خفقان القلب وارتفاع ضغط الدم في الشرايين

فاذا واجه الانسان خطراً ، متمثلاً في سؤال موجّهٍ اليهِ عن جريمة من الجرائم ، كان الأثر الاول الذي يحسُّ بهِ الخوف من الكشف عن صلتهِ بتلك الجريمة ، لان هذا الكشف يفضي الى معاقبتهِ بالغرامة او بالسجن او بالتشهير او بالاعدام . فتستعدُّ جميع أجهزة جسمهِ للدفاع عن الجسم وهذا الدفاع يتخذ في هذه الحالة شكل محاولة التستر على فعلتهِ او الكذب في الردّ على السؤال

ولكن مهما يبرع المجرم في كَبْت انفعالهِ ، حتى لا تبدو آثاره في نظره وكلامهِ وحركاتهِ ، فانهُ لا يستطيع ان يمنع احتشاد قوى جسمهِ الداخلية لهذا الدفاع . وهذه الآلة الجديدة تستطيع ان تتبين أثر كل هذا في ضغط دمهِ ، فترى الريشة ترسم خطًّا متعرجاً شديد التعرُّج . عند ذلك يبادر المحقق اليهِ فيطلب منهُ ان يفسر هذا التقلب الغريب في ضغط دمهِ كما يبدو في الخط المتعرّج على الورقة المنسابة . وفي ٧٥ في المائة من الحوادث ، ينصرف المتهم عن محاولة الانكار الى الاعتراف عند ما يرى الدليل المادي قائماً على انهُ يخفي شيئاً . فاذا أصرَّ على الانكار وجّهت اليهِ أسئلة اخرى متفرقة ومتنوعة ، ومن أثرها في ضغط دمهِ يستطيع الباحث ان يهتدي الى بيّنات تقوده الى الحقيقة ، فالآلة تبين صدق المتهم وكذبهُ . وقد جرّبت حتى الآن في ١٥٠٠ حادثة فأصابت فيها جميعاً

لم تدخل هذه الآلة الى الدوائر القضائية رسميًّا ولكنَّ طائفة كبيرة من البنوك والمنشآت العامة تستعملها لتبيّن سفار المختلسين ومن اليهم من عمّالها وموظفيها . فقد استعمل احد بنوك شيكاغو « بوليغراف كيلر » هذا في امتحان ستة وخمسين من موظفيهِ لاستكشاف من اختلس منهم مبلغ خمسة آلاف ريال ، فكشف عن الرجل ، ولما كشف عنهُ اعترف . واهتدى اصحاب البنك الى تسعة من الموظفين كانوا قد اختلسوا مبالغ يسيرة من المال لا علم للمديرين بها ، وهم يتحنون الآن جميع الموظفين بهذه الآلة مرة كلَّ سنة

وثمة طريقة اخرى استنبطها الاب ممرز احد اساتذة جامعة نوردهام الاميركية تدعى « سيكوغلفانومتر » اي المقياس الكهربائي النفسي . وهي مبنية على اساس كهربائي . فيمسك المتهم بقطعة معدنية بيدهِ ثم يسري في جسمهِ تيّار كهربائي ضعيف مستمدٌّ من بطرية واحدة . واذ يكون في هذه الحالة توجه اليهِ الاسئلة المطلوبة ، بعضها لا صلة لهُ بالموضوع المطلوب البحث فيهِ ، وبعضها لهُ صلة وثيقة بهِ . فاذا سئل سؤالاً لهُ صلة بالموضوع ، وكان على علم بذلك ، يحدث شيء غريب في جسمهِ . فاذا كانت صلتهُ اجرامية حفزت غدد العرق فيهِ الى افراز العرق متأثرة باستعداد قواهُ الداخلية لدفع الخطر عن جسمهِ . وهذا العرق الذي يفرز قليل ، ولكنهُ كاف لتغشية القطعة المعدنية القابض عليها فتقلُّ مقاومتهُ للتيار الكهربائي الساري في جسمهِ ، فيظهر ذلك على جهاز خاص . ومن المستحيل ان تحتال على هذه الآلة لانهُ اذا رفض المتهم ان يجيب عن السؤال الموجّه

اليه ، يعجز عن السيطرة على عدد العرق فيه ، فلا يستطيع ان يمنعها من افراز عرقها ، فكأن افرازها صوت صارخ في وجهه وشاهد على فعلته

وقد ذهب احد الكتّاب العلميين الى الاب متروز وطلب اليه ان يجرّب آلته هذه فيه فجرّبها بان أتى بمجموعة من ورق اللعب وطلب اليه ان يختار احدى ورقاتها وان يعيد الورقة الى المجموعة. ثم اختيرت تسع ورقات اخرى وضمّت الى هذه الورقة وعرضت على الكاتب، وسئل عن كل ورقة منها هل هي الورقة التي اختارها فاجاب « لا » على الورقات العشر . واعيدت هذه التجربة ثلاث مرات . وهو يجيب « لا » اجابة مطّردة . فدلّت الآلة على الورقة التي كذب في الاجابة عنها ، زيادة سريان التيار الكهربائي في جسمه . واخيراً اعترف الكاتب بكذبه فقال لهُ الاب متروز : اذا كان هذا مبلغ فعل الآلة ، في حالة الكذب عن ورقة لا شأن لها فكيف بها والمتهم يحاول ان يخفي جريمة او فعلة شنعاء

وهناك طريقة ثالثة استنبطها الاستاذ كروسلاند وهي عبارة عن ساعة دقيقة لقياس اجزاء الثواني ، واسئلة توجه الى المتهم تحتوي على كلمات بعضها لا علاقة لها بموضوع البحث وبعضها لهُ علاقة وثيقة بالموضوع . وهذه الطريقة لا تكشف عن كذب الكاذب ، بل تكشف عن شعوره بالاثم الذي اقترفهُ . وقد جرّب الاستاذ كروسلاند طريقتهُ في سبع حوادث ، فحصل على اعتراف اصحابها جميعاً فاعترف خمسة منهم بالسرقة وواحد بالتزوير والخامس بالغش في الامتحانات

ولنفرض ان الوزير الذي يريد ان يبحثهُ هو سرقة محفظة تحتوي على عشرة جنيهات ، من جيب احد الموظفين في مكتب تجاري . فيؤتى بجميع موظفي المكتب وتتلى على كل منهم بحضور الآخرين قائمة من الكلمات فيما يلي : — شارع . لبن . محفظة . عجلة . مكتب . جيب . ثلاثة أمتار . محور . حاسب . عشرة جنيهات . قلم وهكذا . فبعض هذه الكلمات لا صلة لهُ البتة بسرقة المحفظة . والبعض الآخر له صلة كل الصلة بها . ويطلب الى كل واحد ، ان يذكر اول كلمة تخطر على بالهِ عند ذكر كل كلمة من هذه الكلمات امامهُ على حدة . ولما كان الوقت الذي يجب ان ينقضي على ذكر الكلمة وذكر الكلمة التي تدعوها في ذهن المسؤول ثانيتين ونصف ثانية ، فكل تأخير عن هذه المدة يعني ان المسؤول يحاول ان يختار الكلمة التي يجيب بها ، بدلاً من ان يقول الكلمة التي تخطر لهُ بداهة ، او ان هناك اضطراب نفسي حملهُ على التأخر . وتعين المدد التي يستغرقها كل فرد في الاجابة بواسطة الساعة الدقيقة ، ثم يوضع جدول بها فيطلق سراح الابرياء وتعاد الكرة في سؤال الذين تقوى الشبهة عليهم . وقد استعملها الاستاذ مورتيمر احد اساتذة جامعة كولومبيا في فرقة مؤلفة من خمسين طالباً فلم تخطىء

وثمة طريقة اخرى مبنية على قاعدة بسيكولوجية تعرف باسم طريقة « حجرة المرايا » . فجدران هذه الحجرة مصنوعة من مرايا يجلس المتهم في وسطها وتوجه اليهِ الاسئلة من حجرة مجاورة عن طريق ثقب في

الجدار . وفي اثناء توجيه الاسئلة اليه ، تحولُ انوار الحجرة حتى يصير لونها صارياً الى الخضرة . فينظر المتهم يميناً ويساراً فلا يرى الاّ وجهه في المرايا التي حولهُ وقد علاهُ لون شاحب كأنه ممتقع. فيظنُّ اذا كان مجرماً ، ان لون وجهه قد نمَّ عليهِ فيعترف في الغالب .وقد اصابت هذه الطريقة قسطاً كبيراً في النجاح في سؤال المجرمين العصبيين او الجهّال . اما العصبيون فلأنهم يعجزون عن الصمود لسمة الاجرام تعلو وجوههم فيعترفون ، واما الجهال فلأنهم لايستطيعون ان يفهموا سرّ هذا اللون فيقعون في خطئهِ . ومن الآلات التي لم تتقن بعد آلة استنبطت لقياس سرعة التنفس وهي تستعمل في الغالب مع مقياس ضغط الدم المعروف باسم « بوليغراف كيلر »

ذكرنا حتى الآن الاساليب العلمية التي تمكن البحاث من تبيُّن الشعور بالاثم او بالاجرام . ولكن بعض علماء الاجرام يسلّمون بان أتم هذه الوسائل قد لا يكفي لانتزاع الاعتراف بالجريمة من فم المجرم المجرَّب . ولذلك استنبط العلم لهذا الطراز من الجناة مركب « السكوبولامين » المعروف بمسل الحقيقة وهو دواء يفعل فعلاً خفيًّا في الدماغ فيعترف المجرم بالحقيقة

والسكوبولامين هذا عقار مستخرج من السَيْكران او الشيخة الفارسية اكتشفه الدكتور هوس R. E. Hones احد اطباء ولاية تكساس في عملية جراحية نسائية .فتبين انهُ يجدّر او يفعل فعلاً مخدراً في بعض مناطق الدماغ ، ولكنهُ لايضعف ذاكرة من يتناولهُ ولاسمعهُ ولا مقدرتهُ على النطق. وبعد موالاة البحث تبين ان منطقة الدماغ التي تتأثر بهِ هي المنطقة التي تمكننا من اختلاق الاقوال في سبيل الدفاع عن النفس . وكذلك كشف ان الانسان الذي يحقن بالسكوبولامين يظلُّ محتفظاً بجميع حواسهِ ولكنهُ يفقد المقدرة على الاختلاق والكذب

وقد جرّبهُ العالم الاجرامي الاميركي المشهور — الكولونل كالفن غودرد — فتبين فعله العجيب . ذلك ان الكولونل غودرد طلب الى احد زملائهِ ان يردَّ على عشرين سؤالاً بسيطاً وجهها اليه. مثلاً : هل تلعب البردج ؟ هل تتكلم الفرنسية ؟ ثم حقن هذا الزميل حقنة تحت الجلد بجرعة من السكوبولامين ، فلما فعل العقار فعله في الجسم ،وجهت الاسئلة نفسها الى الرجل . فتبين انهُ كان صادقاً في ١٩ سؤالاً منها . واما السؤال العشرون فكان «هل قبض عليك لمخالفة ارتكبتها بسيارتك» ؟ فكان جواب اليقظة التامة عليه « لا » واما الجواب والرجل تحت فعل العقار فكان : « نعم لما كنت طالباً في المدرسة التجهيزية في فرجينيا » . ولما استيقظ وسئل عن هذا التناقض صرح انهُ كان قد نسي كل النسيان تلك الحادثة ، الى ان نبشها السكوبولامين من خبايا الذاكرة . وقد استعمل وكيل نيابة برمنغهام بولاية ألاباما هذه الحقنة في التوصل الى سر سلسلة من جنايات الاغتيال بلغ عددها خمساً وعشرين . فضبط عصابة مؤلفة من اثني عشر رجلاً واستعمل هذا العقار في الاهتداء الى حقيقتهم . ولما كانت المحكمة لا تسلّم بدليل من هذا القبيل اعتمد على الحقائق التي انتزعها منهم وتم تحت فعل العقار في الفوز باعتراف صريح منهم